ذاكرة العرب

مجلة ربع سنوية - العدد الأول - يناير ٢٠١٩

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

SPecial Projects
إدارة المشروعات الخاصة

الفهرس

تقديم	٣
نخل العراق	٤
النقود العربية في العصر العباسي	١٦
سيدة الغناء العربي أم كلثوم في أبوظبي	٣٦
أغنية صنعاء	٥٠
ملف خاص	
– زينة الخيول الأشورية وسروجها	٥٢
– ركوب الخيل في العصر العباسي الأول	٦٠
– مضمار وسباق الخيول في سامراء	٦٤
– أدب الفروسية في العصر المملوكي	٧٤
– إسطبلات أمراء المماليك بالقاهرة والعناية بالخيل	٩٨
– الأفراس المؤسسة للمرابط المصرية	١٠٨
– العقيلات ووجودهم في مضامير الفروسية في مصر	١٢٤
– نخبة عقد الأجياد في الصافنات الجياد	١٣٦
الحكاية الفلسطينية	١٤٠
تِطوان: المدينة الأندلسية في شمال المغرب بين الحاضر والماضي	١٤٢
سليل البوعبديل	١٤٨
البريد والطوابع في لبنان	١٥٦
ذاكرة العرب	١٦٤

المشرف العام
مُصْطَفى الفِقي
مدير مكتبة الإسكندرية

رئيس التحرير
خَالِد عَزَب

سكرتير التحرير
سُوزَان عَابِد

المراجعة والتصحيح اللغوي
فاطِمَة نَبيه
مُحَمَّد حَسَن

التصميم الجرافيكي والخطوط
الحَسَن عِصَام
خَالِد مُصْطَفى

الإسكندرية، يناير ٢٠١٩

أدب الفروسية في العصر المملوكي

بقلم: شِهاب الصرَّاف

ترجمة: شريهان سعد

مراجعة الترجمة: خلود سعيد

تأتي معظم المخطوطات الباقية عن أدب الفروسية من العصر المملوكي؛ ولمَّا يُنشر أغلبها بعد. تُمثِّل الأطروحات المملوكية قسمًا واحدًا فقط من هذا الأدب، ويضم الآخر أطروحات ما قبل العصر المملوكي وخاصةً أطروحات العصر العباسي التي نسخها واستخدمها المماليك كمخطوطات ومراجع أساسية. وقد نُشِرت بعض مخطوطات ما قبل العصر المملوكي كمخطوطات مجهولة المؤلف، والبعض قدّمه المماليك على أنه مجهول كذلك، والبعض الآخر نُسب زورًا إلى مؤلفين مماليك. بالرغم من أنه عمومًا وفقًا لمصادر عباسية، لم يعترف أدب الفروسية المملوكي قط بمصادره. ولمزيدٍ من التعقيد، أُسندت بعض الأطروحات المملوكية إلى مؤلفين مبكرين. وأخيرًا، فإن كمًّا كبيرًا من المخطوطات المتاحة كان إما مجهول المؤلف وإما منسوخًا من عمل آخر، ولكن تحت عنوان جديد.

تُمثِّل هذه النقاط المشكلات المتعلقة بأدب الفروسية. فقد أدت عدم القدرة على التفرقة بين أطروحات العصر المملوكي وما قبله، ومعرفة المصادر المتعددة للأطروحات المملوكية وترتيبها، إلى عرقلة دراسة مخطوطات الفروسية من بدايتها؛ مما يفسر جزئيًّا عدم نمو البحث العلمي في ذلك المجال لما بعد مرحلة التوثيق الببليوجرافي، التي احتوت في مراحلها الأولى بالطبع على الكثير من الأخطاء والمعتقدات غير الصحيحة. كان أحد هذه المعتقدات يتعلق بتعريف أدب الفروسية ونطاقه؛ حيث اختزِل إلى جزء فقط مما يجب أن يُمثله في المقالات الببليوجرافية. وإضافةً إلى ذلك، لم يكن هناك أي محاولة في أي وقت مضى للبحث حول أصل وتطور مصطلح «الفروسية» كمفهوم أو كعادة. يسعى هذا البحث إلى توضيح هذه الموضوعات؛ من خلال تحليل منهجي للأطروحات الأساسية المتاحة من أدب الفروسية المملوكي ومصادره من عصر ما قبل المماليك.

ظهر مصطلح «الفروسية» في العصر العباسي في القرن الثامن. ولكنه اكتسب شهرته الكاملة في القرن التاسع عندما أصبح إطاراه المفهومي والفني راسخين وواضحين. وأظهرت الأدلة أن المصطلح يشير إلى مفهومين: الفروسية النبيلة المتمثلة في القصر العباسي، والفروسية الحربية المرتكزة على تدريب المحاربين. تطورت الفروسية النبيلة بإلهام من عادات وتقاليد القصر الساساني كما يبدو في «النعامة». اشتملت فروسية القصر على تدريب الذكور من العائلة العباسية وأبناء النبلاء منذ الطفولة على ركوب الخيل، واستخدام الأسلحة من الرماية والبولو والصيد. كانت الفروسية النبيلة من عادات الدولة منذ إقامتها بعد تأسيس بغداد في عهد الخليفة المنصور (١٣٦-١٥٨هـ/ ٧٥٤-٧٧٥م). كان المنصور طاعنًا في السن لدرجة تمنعه من الانخراط في مثل هذه الأنشطة، ولكنه مهد الطريق لوريثه المهدي (١٥٨-١٦٩هـ/ ٧٧٥-٧٨٥م) وخلفائهما. كان المهدي أول ولي عهد يُربَّى وفقًا لقواعد الفروسية التي وُضعت في «النعامة». وفي عام ١٥١هـ/ ٧٦٨م، بنى أول ميدان للبولو في الإسلام بجوار قصره بالرصافة في بغداد. كان مشهورًا بمهارته في الرماية بالقوس العربي البسيط والفارسي المُركّب، كما كان أول من حوّل الصيد إلى عادة خلفية متطورة؛ حيث سار خلفاؤه على نهجه، وأصبحت البراعة في الفروسية شرطًا من شروط الخلافة، كما أكد الجاهز: «لم يعتلِ أي من أحفاد العباس الحكم بدون التمكن التام من فنون الفروسية».

لم تكن الفروسية النبيلة ناتجًا ساسانيًّا بطابع عربي أو إسلامي فحسب، إذ كانت مزيجًا فريدًا وأصيلًا من التفاعل بين الثقافة العربية والساسانية في إطار إسلامي. جاءت التأثيرات البيزنطية من المملكة الإسلامية الأولى؛ الدولة الأموية (٤١-١٣٢هـ/ ٦٦١-٧٥٠م)، التي احتفظت بالكثير من القيم القبلية من فترة ما قبل الإسلام مثل مفهوم العرب عن الفارس الذي يُمثِّل الشجاعة والشهامة والمروءة والسخاء، وهي الصفات التي تغنى بها شعراء العصر الأموي. كانت فكرة الفارس قد توغلت في نسيج فروسية القصر العباسي. وقد كان جانب الشهامة في الفروسية النبيلة قويًّا للغاية لدرجة أنه بقي بعد موت العادة نفسها.

وقد كانت هذه القيم نفسها الأساس الأخلاقي للفتوة (من فتى، التي تعني حرفيًّا «شاب»)، الذي ظهر في الوقت نفسه مع الفروسية. كانت فكرتا الفارس والفتى شديدتي الترابط، حتى إن اللفظين كانا يُستخدمان بالتبادل. وينعكس هذا الارتباط على أدب الفروسية، الذي يشتمل على أطروحات حول جوانب من الفتوة مثل فتوة رمي البندق. عادةً ما اشتملت أطروحات الصيد في العصر العباسي على فصول عن رمي البندق؛ أما الأعمال الكاملة التي تناولت هذا الموضوع، فقد ظهرت في القرن الثاني عشر، واستمرت حتى عصر المماليك.

بدأت الفروسية الحربية أو العسكرية من الجيش العباسي المحترف الذي تكوّن عند اعتلاء العباسيين منصة الحكم. وقد تضاءل وجود الجيش القبلي القديم بسرعة في العقود الأولى للدولة، حتى خمد تمامًا تحت حكم المأمون (١٩٨-٢١٨هـ/ ٨١٣-٨٣٣م) وألغاه رسميًّا أخوه المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ/ ٨٣٣-٨٤٢م) الذي توسع في تطبيق سياسة تجنيد العبيد الأتراك العسكريين حتى أصبحوا العمود الفقري لجيش الخليفة. ولكن ثبت أن هذه السياسة لا يمكن الرجوع فيها، وأصبح الغلمان أو المماليك - كما عُرفوا - حجر الأساس للفروسية الحربية من القرن التاسع إلى نهاية سلطنة المماليك (٩٢٣هـ/ ١٥١٧م)، وأضحى تدريب الفارس المملوكي محور أدب الفروسية.

كان نظام تدريب شباب خراسان، الذين كانوا جوهر الجيش العباسي قبل التجنيد الجماعي للعبيد الأتراك - أساس التدريب العسكري لغلمان الدولة العباسية. وقد تم تناول هذا النظام - بالإضافة إلى مفهوم الفروسية الحربية بشكل عام - في الأعمال العباسية في القرن التاسع التي كتبها ابن أخي حِزام بن محمد بن يعقوب؛ أحد قادة الجيش العباسي وخبير الخيل، والذي يُمكن اعتباره مؤسس أدب الفروسية.

اشتملت أعمال ابن أخي حِزام على أطروحتين معاصرتين كتبهما كمخطوطات أصبحت بعد ذلك مصادر رئيسيةً للأطروحات المستقبلية، حتى إنها حددت بشكل كبير محتويات أدب الفروسية. كانت الأطروحة الأولى - المشار إليها هنا بالأطروحة (أ) - تُغطي ركوب الخيل، وعلم الخيل، والبيطرة؛

أما الثانية – المشار إليها بأطروحة (ب) – فتناولت بشكل رئيسي مبادئ ركوب الخيل، والتمكن منه، وأساليب استخدام الحربة والسيف والأسلحة والرماية والبولو. كونت هذه الموضوعات – بالإضافة إلى السباق – جوهر أدب الفروسية. ولأن هناك تقاربًا بين كل هذه الموضوعات وتلك المتعلقة بالحرب بشكل عام، عُدَّت الأطروحات حول فنون الحرب جزءًا من هذا الأدب.

ولأن الفروسية كانت وظلت من عادات الدولة، كان ازدهارها وسقوطها شديدي الارتباط بالحكم واستقلال الخلفاء. ويُمكن الفصل بين فترتين عظيمتين من فترات أدب الفروسية: الأولى ازدهرت في النصف الثاني من القرن الثامن إلى الدولة البويهية (٣٣٤هـ/ ٩٤٥م)، والثانية من النصف الثاني من القرن الثاني عشر إلى الغزو المغولي في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي. أدى تدمير بغداد وإنهاء الخلافة العباسية في بغداد (٦٥٦هـ/ ١١٥٨م) إلى أن تصبح القاهرة ودمشق مركزي العالم الإسلامي بلا منازع. ورث المماليك التقاليد العباسية وطوروا منها، ومنها أدب الفروسية الذي بالغ في سرد التدريبات نظرًا لكونها عادة عسكرية، وأيضًا لتهديد المغول. كذلك زاد المماليك من نطاق الفروسية بتقسيم التدريب إلى الفروسية العلوية التي تعني التدريبات والألعاب التي تتم على ظهر الحصان؛ والفروسية السفلية التي تتم على الأقدام مثل استخدام الأسلحة والرماية.

يمكن للفحص الدقيق والبحث المستمر في أدب الفروسية وخلفيته التاريخية أن يؤدي فقط إلى التصنيف المقترح أدناه؛ مما يتناقض بشدة مع التصنيف المقترح مسبقًا.

يُمكن تقسيم أطروحات الفروسية إلى فئة أو اثنتين. يحتوي التصنيف الأول على أطروحات تتناول موضوعًا أو فرعًا معينًا من الفروسية، تتضمن ركوب الخيل وعلم الخيل والبيطرة، أو الرماية، أو فن استخدام الحربة، أو فنون اللعب بالدبوس، أو فنون الحرب، أو الأسلحة وآلات الحرب، أو المطاردة والبولو. أما الفئة الثانية، فاحتوت على أطروحات الفروسية العامة التي تناولت بعض أو أغلب الموضوعات المذكورة، إما في صورة مختصرة، وإما كأجزاء من أطروحات الفئة الأولى، وإما أطروحات صغيرة كاملة. وينطبق هذا أساسًا على اللعب بالحربة والدبوس؛ كذلك تغطي تدريب فرسان المماليك، وكل ما يتعلق بالفروسية السفلية. ويمكن تقسيم أطروحات الفروسية المملوكية التابعة لأي من الفئتين إلى ثلاث مجموعات.

تكونت المجموعة الأولى من الأطروحات الأساسية التي يُميزها الأصالة والإسهام الأساسي، وهي جزء صغير من إجمالي الأعمال المنتجة في هذه الفترة. وكان غالبًا ما يكتبها المحترفون الذين ينتمون إلى المؤسسة العسكرية أو من عملوا معها. انتمى مؤلفان من هذه المجموعة إلى سلاح الفرسان المحترف غير المملوكي. وعدد قليل جدًّا من الأطروحات مُوقع باسم مماليك، ربما بسبب عدم إجادة اللغة العربية، وإلا أصبحت تلك المجموعة ثرية بأعمال أصلية مبنية على الملاحظة والتجربة الشخصية.

تحتوي المجموعة الثانية على مجموعات مبنية على المجموعة الأولى، وعلى أعمال ما قبل المماليك. كوّن أفضل الأمثلة علماء، مثل شرف الدين الدمياطي (توفي ٧٠٥هـ/ ١٣٠٥-١٣٠٦م)، وبدر الدين بن جماعة (توفي ٧٣٣هـ/ ١٣٣٣م)، وابن القيم الجوزية (توفي ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م)، وعز الدين بن جماعة (توفي ٨١٩هـ/ ١٤١٦م)، وشمس الدين محمد السخاوي (توفي ٩٠٢هـ/ ١٤٩٧م)، وجلال الدين عبد الرحمن السيوطي (توفي٩١٠هـ/ ١٥٠٥م). وأكدت إسهاماتهم – التي شكّلت بحجمها فقط ظاهرة غير معتادة في العالم الإسلامي – خصوصية السلطنة المملوكية؛ إذ اقتبسوا بوضوح ودقة من أطروحات فُقِدت الآن، ولكنهم عادةً ما اعترفوا بمصادرهم، على عكس ما حدث غالبًا من مؤلفي أطروحات المجموعة الأولى، ولم يحدث تمامًا من مؤلفي أطروحات المجموعة الثالثة. كذلك كانوا أحيانًا يعرفون المصطلحات التقنية المهمة. وأخيرًا، كانت لغتهم من أعلى طراز يُستخدم في أدب الفروسية؛ مما ساعد على التحقق من أخطاء الناسخين وتصحيحها في أطروحات المجموعات الأخرى. كان الكثير من هؤلاء المؤلفين على دراية بفنون الفروسية. فعلى سبيل المثال، كان محمد الأقصرائي الحنفي (توفي ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م) رامي حربة متمرسًا وضليعًا في الرماية التي مارسها وبرع فيها الكثير من العلماء. وكان علاء الدين الإخميمي رئيس الشافعية في عهد سلطات الغور (٩٠٦-٩٢٢هـ/ ١٥٠١-١٥١٦م)، يعد خبرة لا يُستهان بها في فنون الرماية وفقًا لمعاصريه. وقد أظهر البحث الدقيق أنه مؤلف أطروحتين عن الرماية كانتا مجهولتي المؤلف، بعنوان «حال الإشكال في الرمي بالنبال» (والتي تنتمي إلى المجموعة الأولى)، وأطروحة حول الفروسية بعنوان «نقاوة المنتقى في نفيعات اللقاء»، وهي نسخة مختصرة من أطروحة تقي الدين يحيى بن الكرماني (توفي ٨٣٣هـ/ ١٤٣٠م)؛ الضائعة، والتي تنتمي إلى المجموعة الثانية.

اشتملت المجموعة الثالثة على الأدب الشعبي، وغالبًا الملفق الذي أنتج لسد طلبات أعمال الفروسية بنهاية عهد المماليك البحرية (٦٤٨-٧٨٤هـ/ ١٢٥٠-١٣٨٢م)، وخلال الفترة الجركسية (٧٤٨-٩٢٣هـ/ ١٣٨٢-١٥١٧م). واحتوى الكثير منها على أجزاء مبتورة وأحيانًا ممزوجة من الأطروحات المملوكية وقبل المملوكية من المجموعتين السابقتين؛ إما أن الناسخين

رمي القبق: ٢٠×٣٠ سم، باريس، المكتبة الوطنية: MS 2824، A 28.

الذين أدوا دورًا كبيرًا في الدعاية لتلك الأعمال تركوها مجهولة المؤلف عمدًا، وإما نسبوها إلى مؤلفين معروفين من الفئة الثانية. وعليه، أدت هذه المجموعة إلى ضلال الكثير من العلماء؛ فيجب دراستها فقط بعد الفهم التام للمجموعتين الأولى والثانية. وبالرغم من وجود بعض الأمثلة العشوائية أدناه، فإن هذا البحث يُركِّز فقط في المجموعتين الأولى والثانية.

أطروحات الفروسية المملوكية ومصادرها

الفئة الأولى: أطروحات حول ركوب الخيل، وعلم الخيل، والبيطرة

كتب أبو بكر البيطار بن بدر الدين الشهير بابن منذر (توفي ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م)؛ كبير الأطباء البيطريين للسلطان الناصر محمد بن قلاوون خلال ولايته الثالثة، الأطروحة الوحيدة الجديرة بالاعتبار في هذا المجال «كشف الويل في معرفة أمراض الخيل» والتي عرفت أيضًا بـ«كامل الصناعتين في البيطرة والزردقة والناصر». بالرغم من أن الكاتب اعتمد بشدة على مصادر من عصر قبل المماليك وخاصةً أعمال ابن أخي حِزام، فقد ضمنت خبرته العملية أن يصبح كتابه إسهامًا حقيقيًّا، ونجا منه أكثر من خمس عشرة نسخة، منها نسخة بتوقيعه بتاريخ ٧٢٢هـ/ ١٣٢٢م.

ومن الأمثلة الجيدة للأطروحات المجمعة حول هذا الموضوع أطروحة عمر بن رسلان بن نصر البلقيني (توفي ٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م)، بعنوان «قطر السيل في أمر الخيل»، وأطروحة شرف الدين عبد المهيمن الدمياطي؛ وهي اختصار لمجموعة من الأحاديث النبوية، بعنوان «فضل الخيل». كذلك احتوت على مواد ملحقة حول علم الخيل وركوب الخيل. وقد بقي منها على الأقل ست نسخ.

اعتمدت أطروحات المماليك حول ركوب الخيل وعلم الخيل والبيطرة بشكل رئيسي على أعمال محمد بن يعقوب بن غالب بن علي الختال، الشهير بابن أخي حِزام. وكان حِزام؛ عم محمد، قائدًا شهيرًا بفرقة خراسان، وصاحب خيال الخليفة المعتصم. وفقًا لليعقوبي، فإن الاعتناء بإسطبلات المعتصم بسامراء لم يكن مسندًا إلى حزام وحده؛ وإنما تشارك معه أخوه يعقوب والد ابن أخي حزام. فمن الصعب تصور بيئة أكثر ملاءمة لتطوير مهارات الفارس واكتساب المعرفة الأساسية بالخيل. خطا ابن أخي حزام خطى والده وعمه، إذ انضم إلى فرقة خراسان ووصل بها إلى أعلى المناصب القيادية. كذلك توجد أدلة أن ابن أخي حزام أصبح صاحب خيال الخليفة المعتمد (٢٧٩ -٢٨٩هـ/ ٨٩٧-٩٠٢م).

وذُكر سابقًا، أن قد اشتمل عمل ابن حزام على عملين تكميليين: أطروحته (أ) تنتمي إلى الفئة الأولى، والأطروحة (ب) تنتمي إلى الثانية. وقد وصلت إلينا الأطروحتان منفصلتين بعنوانين مختلفين، كما أن عدد النسخ قد تم إدراجها كمجهولة المؤلف. وكان بعض الأطروحات الأخرى مجمعًا كعمل واحد مُقسم جزأين، لكل منهما مقدمته الخاصة - عُرِف في النهاية بالأطروحة (أ ب) -. وكان العنوان الذي أطلقه الكاتب محمد بن منجلي على العمل ككل هو «الفوائد الجليلة في علوم الفروسية والرماية وأمراض الخيل ومداواتها».

وقد ذكر ابن النديم الأطروحة (أ) فقط كعمل عن البيطرة كتب من أجل المتوكل (٢٣٢-٢٤٧هـ/ ٨٤٧-٨٦١م). ولكن البيطرة كانت جزءًا واحدًا فقط من هذه الأطروحة التي تعد دليلًا للمحاربين وضباط الجيش وقادته. أما باقي الأطروحة، فيتناول علم الخيل وركوبها وتربيتها. وبدراسة هذه الموضوعات وتلك التي تتناول العناية بالخيل والبيطرة، يبدو واضحًا أنها مبنية على أسس قوية في هذا المجال، فقد قام العباسيون بالفعل بعمل عظيم. فلم يعد المؤلف بحاجة إلى العمل على مادة أولية، بل قام بالبناء عليها بقوة وتطوير مزيج جديد. وكانت النتيجة إسهامًا حاسمًا وعملًا حديثًا. وقد وصل في بعض الموضوعات إلى مستوى الكمال، كما يتضح في طريقة تدريب الفارس والخيل في الحلبة.

يشير العدد المحدد لنسخ المماليك من تلك الأطروحة إلى أنها كانت تُستخدم كدليل ومرجع مباشر. حذّر ابن منجلي رفاقه المماليك من الرجوع إلى أي عمل غير ذلك الخاص بابن أخي حزام «حيث إن ذلك العمل الضخم يشتمل على الكثير من المعرفة». حتى إن الكلمات الأولى التي استخدمها ابن أخي حزام بمقدمته «أما بعد، فإنني لم أزل بعدما وهب الله لي من المعارف بآلات الفروسية ودقة النظر وشدة الفحص عما وصفه أهل النجدة والبأس من ذوي النيات الخالصة»، أصبحت شعارًا في أطروحات الفروسية المملوكية. وقد ضمت أطروحات المماليك العامة عن الفروسية أجزاء من أطروحة ابن أخي حزام، كالفئة الثانية بصفة خاصة في الأعمال المجمعة (المجموعة الثانية) والأعمال الشهيرة (المجموعة الثالثة). ولكن كجميع الأعمال، عانت الأطروحة كثيرًا على يد الناسخين، حتى إن اسم المؤلف قد تأثر، خاصةً لقبه ونسبه. وقد أدت تلك الأخطاء إلى عدد من التعريفات الخاطئة عن المؤلف وعمله؛ مما أسهم فقط في تغطية أهميته كرائد في هذا المجال.

الفئة الأولى: أطروحات حول الرماية

لم ينتج المماليك أي أطروحات ذات قيمة عن الرماية حتى نهاية فترة المماليك البحرية، راضين بإعادة إنتاج أدب الرماية من فترة ما قبل المماليك. على سبيل المثال، كان الفصل المهم عن الرماية في أطروحة الأقصرائي «نهاية السؤال» الذي كُتب في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون مبنيًّا كليًّا تقريبًا على مصادر من فترة ما قبل المماليك. ويبرر المؤلف ذلك بأنه بعد الرواد الأوائل لم يعد هناك إسهامات في ذلك المجال. كانت الأطروحة الهائلة للمغربي أبي محمد جمال الدين عبد الله ابن ميمون من القرن الثالث عشر، هي المصدر الأساسي لابن منجلي عن الرماية في أطروحاته المختلفة حول الفروسية التي كُتبت في عهد السلطان الأشرف شعبان الثاني (٧٦٤-٧٧٨هـ/ ١٣٦٣-١٣٧٦م). وقد استنكر كل من ابن منجلي والأقصرائي حالة الرماية في عهد السلطنة؛ حيث بدأت في التدهور في أثناء الفترة الثالثة من عهد السلطان الناصر، وساءت في العهود المتتالية لأبنائه.

حدث انتعاش طفيف في الرماية والفروسية بشكل عام في عهد الأشرف شعبان؛ مما أسفر عن عدة أعمال ذات صلة، بما في ذلك أطروحة عن الرماية تحمل توقيع مدرب رماية سوري يدعى طيبغا البكلميشي اليوناني، وكانت أول أطروحة مملوكية حقيقية عن الرماية. وبالرغم من استعارة الكثير من المصادر من فترة ما قبل المماليك، كان الإسهام الحقيقي لطيبغا في الصفحات الخاصة بأساليب الرماية من فوق ظهر الحصان والمعايير ووصف قوس الحرب المملوكي- القوس الدمشقي. زادت الدقة النسبية والبساطة والفائدة والفراغ الذي ملأه هذا العمل من شعبيته في الفترة الجركسية التي شهدت اهتمامًا، كما اتضح من عدد النسخ الناجية.

ولعل أبرز إسهامات المماليك لأدب الرماية جاءت في العهد الجركسي. وكان محمد بن علاء الصغير بن قطلوبغا بن العلا القنازل الشهير بالمعلم (توفي ٨٥٨هـ/ ١٤٥٤م) مصدرًا عظيمًا للرماية، إذ كان كبير مدربي المماليك الملكيين بالثكنات في عهد السلطان مؤيد شيخ (٨١٥-٨٢٤هـ/ ١٤١٢-١٤٢١م) ومن بعده السلطان جقمق (٨٤٢-٨٥٧هـ/ ١٤٣٨-١٤٥٣م)، ثم عين واليًا لمدينة دمياط. وهو المؤلف الوحيد في هذه المجموعة الذي يتوافر عنه معلومات كثيرة في المصادر. ولطالما عَدَّه الكثيرون في أثناء حياته الطويلة أهم المصادر عن الرماية نظريًّا وعمليًّا. وقد كان هذا الثناء مبررًا تمامًا؛ نظرًا لأنه كان بالفعل أهم المصادر المملوكية في هذا المجال وأبرز الأسماء التي كتبت عن أدب الرماية في الإسلام. كتب الصغير العديد من الكتب المتخصصة في الرماية، ولكن لم ينجُ منها إلا واحد فقط هو كتاب «النشاب المختصر المحرر»، والنسخة الوحيدة الموجودة منه حاليًّا تحمل توقيعه بتاريخ ٨٢٢هـ/ ١٤١٩م. وتتناول تلك الأطروحة القوس وملحقاته وأساسيات الرماية فقط، ولكنها لم تكتب للمبتدئين، بل للرماة ذوي الخبرة الذين يستطيعون فهم التحليل النقدي وتقديره لبعض تعاليم كبار القادة من فترة ما قبل المماليك. ونظرًا للطبيعة المتخصصة لأعمال الصغير، لم تكتسب شعبية أطروحة طيبغا. وبينما كان لا يزال طالبًا عند الأستاذ لؤلؤ العز، كتب تعليقًا على «القصيدة اللامية التعليمية» للأستاذ صالح الشغور. وقد بقي على الأقل نسختان.

ومن القائمة الطويلة للأعمال الأقل أهمية في هذه المجموعة نجد الأعمال التالية جديرة بالذكر: «الأرجوزة الحلبية في رمي السهام عن القسي العربية»، وهي قصيدة من ٤٠٠ بيت، كتبها أبو بكر الرامي الحلبي «المنقار» (٨٩٠هـ/ ١٤٨٥م)، و«حال الإشكال» للإخميمي؛ وهي تعليق كُتِب في القرن الخامس عشر عن «أرجوزة» القرن الثالث عشر مجهولة المؤلف، وهناك ثلاث نسخ معروفة منها.

ومن الأطروحات المجمعة الجيدة في المجموعة الثانية نسخة موقعة بتاريخ ٨٤٤هـ /١٤٥١م من كتاب «هداية الرامي إلى الأغراض والمرامي»، الذي كتبه الحسن بن محمد بن إياس الحنفي السنجاري للسلطان جقمق، ويعد سيرة ذاتية واضحة للغاية للرماية الإسلامية، بالإضافة إلى بعض المعلومات المهمة عن الرماية في عصر ما قبل المماليك. وهناك أطروحة السيوطي «غرس الأنشاب في الرمي بالنشاب»، وأطروحة السخاوي «القول التام في فضل الرمي بالسهام» جديرتان بالاهتمام. وهناك على الأقل ثلاث نسخ من الأولى؛ أما الثانية، فمنها نسخة موقعة بتاريخ ٨٧٥هـ/ ١٤٧٠-١٤٧١م.

ولعل أقدم المصادر التي وصلتنا عن الرماية في الإسلام كان الفصل المهم الذي كتبه ابن أخي حزام في أطروحته (ب)؛ إذ إن مجموعة الأبواب التي يحتوي عليها ودقته جعلت منه أطروحة مستقلة بذاتها، حتى إنه جاء في صورة أطروحة مستقلة عن الرماية في نسخة مسروقة من أطروحته (ب)، بعنوان كتاب «الرماية بالنشاب». ويتناول هذا الفصل أنواع الأقواس، والحبال، والنبال، وخواتم الإبهام، وتدريب المبتدئين، والتصويب على العصافير، والأخطاء والإصابات التي قد يتعرض لها الرماة، وشد القوس، والتصويب من الحصن وعليه، وأساليب التصويب من على ظهر الحصان، والتصويب على أسد من فوق ظهر الحصان... إلخ.

تمرينات الحربة: لندن، المكتبة البريطانية، قائمة رقم: MS 18866.

وقد أصبح الفصل مصدرًا مهمًّا لأطروحات الفروسية اللاحقة، كما كان يعد ضمن أطروحات الرماية الشاملة، التي تُمثلها الأطروحة العظيمة التي قدمها في القرن الثالث عشر الرامي المغربي أبو محمد جمال الدين عبد الله بن ميمون، الذي كتب «الإفادة والتبصير لكل رام مبتدئ أو ماهر النحرير بالسهم الطويل أو القصير». وقد نصح ابن منجلي رفاقه في الفرقة باستخدامها كمرجع مهم. وكذلك كانت أطروحة ابن الميمون الأولى بعنوان «كفاية المقتصد البصير في رمي القوس العربية بالسهم الطويل والقصير» أكثر تكثيفًا، وعُرفت في فترة المماليك لكنها غير متوافرة الآن، في حين بقيت أربع نسخ من «الإفادة».

وعلى الرغم من ذلك، كانت أطروحات الرماية الشاملة، مثل أطروحة ابن ميمون وطيبغا والصغير حتى التطورات الأكثر تكثيفًا في فصول ابن أخي حزام والأقصرائي – جزءًا صغيرًا فقط من أدب الرماية. أما الجزء الأكبر، فتمثل في الأطروحات التي تتناول أساسيات الرماية والأساليب المتعددة للتطبيق التي أوصى بها أساتذة ما قبل المماليك. لم يكن عدد الأساتذة الكبار نفسه في كل الأطروحات؛ وإنما تشير البيانات إلى أنه لم يكن هناك أكثر من عشر شخصيات أساسية، أبرزهم: أبو هاشم البواردي، وطاهر البلخي، وإسحق الرفاعي، وأبو الحسن الكاغدي، وسعيد بن خفيف السمرقندي؛ وقد ازدهروا في العراق وخراسان خلال القرون الثاني والثالث والثامن والتاسع والعاشر. ويبدو مؤكدًا أن أبا الفتح سعيد بن خفيف السمرقندي الذي عُدَّ أعظم أساتذة ذلك العصر هو نفسه أبو الفتح سعيد بن خفيف السمرقندي الذي ازدهر في بغداد في أواخر القرن التاسع وبداية العاشر؛ حيث ذاع صيته في عهد الخليفة الراضي (٣٢٢- ٣٢٩هـ/ ٩٣٤-٩٤٠م)، والخليفة المستكفي (٣٣٣-٣٣٤هـ/ ٩٤٤-٩٤٦م). وكان والده خفيف السمرقندي أحد الغلمان الأوفياء والأقرباء للخليفة المعتضد (٢٧٩-٢٨٩هـ/ ٨٩٢-٩٠٢م) وآخر حجابه. وفي عهد هذا الخليفة الذي تميز بكونه راميًا بارعًا وداعمًا لأسلوب الاختلاس، وصلت المؤسسة المملوكية العباسية إلى ذروة نضجها، وكانت الرماية في أوجها.

وقد أسهم قيام الدولتين البويهية في العراق والفاطمية في مصر، في انحدار مستوى الرماية في المنطقة، وخاصةً الرماية على ظهر الحصان. لم تكن كتائب الديلامي في الأولى ولا البربر في الثانية قد استخدمت هذا السلاح من قبل. ولم يوقف هذا التدهور لجوء المملكتين، وخاصةً البويهية، إلى فرسان الرماة الأتراك. ولم تعد الرماية بقوة إلا عندما اجتاح السلاجقة المنطقة مع رماة الخيل التركمان؛ إذ أُعيد إحياء أدب الرماية بشكل هائل، وأُعيد إنتاج أطروحات قديمة وكُتبت أخرى جديدة. وتمثلت هذه الروح الجديدة في أطروحتين على شكل قصائد تعليمية: كُتبت الأولى في القرن الثاني عشر على يد مؤلف مجهول؛ وهي «الأرجوزة» التي علق عليها الإخميمي (انظر حال الإشكال). وتنتمي الثانية إلى حسين بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله اليونيني (توفي ٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م)، بعنوان «النهاية في علم الرماية»، وأصبحت أحد المصادر الأساسية لأطروحات المماليك عن الرماية، ويبقى منها أكثر من ثماني نسخ. وتتناول الأطروحتان أساسيات الرماية، واستشهدت بأول ثلاثة أسماء من أساتذة ما قبل المماليك المذكورة أعلاه باعتبارهم الأساتذة الحقيقيين للرماية.

ظهرت شخصية أخرى، رام يُذكر دائمًا بالطبري. نعرف منه أنه تدرب على جميع أساليبَ الأساتذة الثلاثة في مجالاتهم المتخصصة، وكوّن مزيجه الخاص من الأساليب. وقد شرح أساليبهم ومقاربته المختلطة في كتاب «الواضح»، وهو الأطروحة التي يتوافر منها تسع نسخ على الأقل، وتعد مصدرًا أساسيًّا لأدب الرماية في عهد المماليك، ودليلًا لا يمكن الاستغناء عنه لرماتهم. لا نعرف الكثير عن الطبري ما عدا أنه كان راميًا بارعًا سافر إلى خراسان والعراق؛ بحثًا عن الكمال في ذلك الفن حتى إنه عاش في فترة قريبة من تلك التي عاش فيها الأساتذة الأوائل (القرنين الثامن والتاسع). كان اسمه الصحيح هو أبو محمد عبد الرحمن أحمد الطبري، وليس أحمد بن عبد الله محب الدين الطبري (٦١٥-٦٩٤هـ/ ١٢١٨-١٢٩٥م)، كما تذكر المصادر الحديثة المبكرة وتبناه العلماء المحدثون بدون تحقيق. يعد كتاب «الواضح» أطروحة أساسية، ليس لفهم أدب الرماية المملوكية فقط، ولكن أيضًا لفهم الرماية المملوكية بشكل عام.

في أواخر الفترة الأيوبية عندما أصبحت دمشق أكبر مركز شرقي لصناعة أقواس الحرب؛ وكان إنتاجها قد توحد في ثلاثة أنواع، قدّم مؤلفون ورماة سوريون فكرة أن ممارسات الأساتذة العظماء مثّلت ثلاث فئات جسدية: طويل (أبو هاشم) ومتوسط (إسحق) وقصير (طاهر). كان هذا التصنيف ضيقًا للغاية كقوس مصنوعة لرجل طويل، وأساليبه لا تصلح لرجل متوسط أو قصير القامة؛ أما الطريقة المختلطة للطبري، فقدمت بديلًا عمليًّا، وكان لها تأثير الاستقرار والأمان ضد هذا التصنيف الضيق.

كان عمل ركن الدين جمشيد الخوارزمي أحد المصادر الأساسية الأخرى لأدب الرماية المملوكي. وقد يبدو واضحًا من الاقتباسات الطويلة التي استخدمها الصغير من هذه الأطروحة والمعلومات القيمة التي ذكرها عنه السنجاري - أن جمشيد كان مصدرًا مهمًّا للمماليك عن الأساتذة الكبار والطبري بشكل خاص الذي عاصره. وقد أكد جمشيد هذه المعلومات في أطروحة صغيرة، ولكن مهمة، بقي منها نسخة واحدة. ذكر جمشيد في هذه الأطروحة - وهي تقريبًا نسخة مختصرة جدًّا من أطروحته غير المتوافرة حاليًّا - أن أبا بكر بن عبد العزيز ابن جلهام البغدادي، قد راجع عمله وحققه. وتعد أطروحة محمد بن يوسف الأخباري (القرن التاسع/ العاشر) بعنوان «الإيضاح في علم الرمي» - المتبقي منها نسخة واحدة فقط - من المصادر الأخرى عن أدب الرماية المملوكي. كذلك ذكر مؤلفو المماليك أيضًا الأعمال الضائعة لأبي بكر الوراق، وأبي موسى السرخسي، وأحمد السهروردي، وأبي جعفر بن محمد الهواري، وعلي الدقاق.

الفئة الأولى: فنون الحربة

يمكن تقسيم فنون الحربة إلى أربعة أقسام تقريبًا؛ الأول: تدريب الفرسان على استخدام الحربة، وأنواع ضربات وجروح الحربة، وأساليب القتال بالحربة في مختلف المواقف. والثاني: البنود (ومفردها بند ويعني الحربة بالفارسية). ويحتوي كل بند على مجموعة من الحركات المجمعة يقوم بها رامي الحربة منفردًا على ظهر الحصان، في حين يتحرك كأنه في وسط المعركة. ويرتكز البند على ركنين أساسيين: الضرب والتفادي؛ وينفذان في أربعة اتجاهات: الأمام والخلف واليسار واليمين، ولكن بزوايا مختلفة. والثالث: المناصب الحربية التي تعني أساليب القتال بالحربة، إذ يتنازل مقاتلان على حصانين في محاكاة للمعركة. والرابع: الميادين (ومفردها الميدان)؛ وهي أسلوب مجمع من محاكاة القتال بين فريقين من مقاتلي الحراب وفقًا لمسار محدد.

كانت الأطروحة (ب) لابن أخي حزام هي المصدر الأساسي للمماليك لتدريب الحِراب وأنواع الضربات والجروح؛ كما كانت أحد المصادر الرئيسية عن أساليب النزال بالحربة في مختلف المواقف. بالرغم من أن بعض المصادر بقيت غير محددة، فإنه ذُكر اثنان من أساتذة المماليك، وبخصوص العلاقة مع المناصب الحربية، وهما: محمد بن الشيدامي، وإبراهيم بن سلام. لا يوجد مصادر محددة للبنود من قبل عصر المماليك. وتظهر الأدلة أن المماليك ورثوا ١٥٠ بندًا من الأساتذة الأوائل، كما أن أطروحاتهم ذكرت المصدر العباسي وأستاذ الحربة العراقي الأسطى بريق الرماح البغدادي. لم يبقَ أي مصدر من عصر ما قبل المماليك عن الميادين. أوضحت الأطروحة (ب) لابن أخي حزام أن هذا الفن ينحدر أصلًا من العباسيين. كذلك اعتمدت أطروحات المماليك على مصدر مفقود يذكر أن النزال الفردي والجماعي بالحربة قد تم قبل عهد المعتصم والمعتضد، بالإضافة إلى أن رئيس إسطبل الثاني ابن أخي حزام كان يشارك.

وبغض النظر عن أهمية التراث العباسي، فقد أظهر المماليك قدرة حقيقية على الابتكار في هذا المجال؛ إذ إن إسهامهم في الفروسية كان واضحًا. ويعود الفضل في ذلك كلية تقريبًا إلى رجل واحد، وهو أستاذ الحربة السوري نجم الدين الأحدب الرماح (٦٣٦-٦٩٥هـ/ ١٢٣٨ أو ١٢٣٩-١٢٩٦م)، الذي ابتكر في ثلاث من الأربع فئات، ولكن شهرته جاءت أساسًا من الـ٧٢ بندًا التي اختصرها من الـ١٥٠ بندًا الموروثة من العباسيين.

ظل تأثير الأحدب في أدب الفروسية المملوكي واضحًا حتى نهاية السلطنة، كما يبدو من المخطوطات الكثيرة الباقية التي تحتوي البند والمنصب. ومعظم تلك الأطروحات تنتمي إلى الفئة

الثانية، ويمكن تصنيف الكثير منها كأدب فروسية مبتذل. فقد أعد الناسخون والمجمعون المجهولون أطروحات مطولة ملفقة بشكل غير متسق لتشمل البند والمنصب. وبإرجاع فضل تأليف تلك الأطروحات إلى الأحدب، انتشر الانطباع الخاطئ أنه قد كتب عددًا آخر، حتى إن البنود التي نسبت إليه كانت نسخًا فحسب غير موثوق بها من تلك التي في كتاب «البنود». لم يتمكن الأقصرائي الدمشقي أو معاصره الأصغر سنًّا الأحدب أو تلميذ تلميذه عز الدين الرماح، من العثور على النسخة المؤكدة لكتاب «البنود». فقد أدرج أربع نسخ مختلفة في أطروحته «النهاية»؛ حيث علق أن تلك النسخ المتنوعة كانت مفيدة؛ مما يعني أنها لا تعكس تصريفات الناسخين؛ وإنما نسخ أصلية مختلفة كتبها المؤلف نفسه. يلقي هذا التعليق الكثير من الشك على وجود النسخة الحقيقية من كتاب «البنود»، ويشير إلى احتمالين؛ أولًا:

أن الأحدب كتب نسخًا مختلفة خلال تاريخه المهني كأستاذ في فن الحربة، وأنه لم يكتب تلك الأطروحة على الإطلاق، ولكن قام تابعوه بتسجيل البنود في الأوقات المختلفة، إما بمحض إرادتهم وإما بأمر منه. أما الاحتمال الثاني، فيتماشى أكثر مع تقاليد هذه الفترة، ويمكن التوصل إليه من الأقصرائي ومؤلفين آخرين. يمكن لنقل وتطور بنود الحربة من قبل تابعي الأستاذ شرح عدم وجود الأطروحات التي تحمل توقيع من كتبوا أطروحات جديدة مثل الأقطع؛ وهو أحد معاصري الأحدب، وآدم والأسطى بريق البغدادي. لم تشتهر فكرة الميادين للأحدب كفكرة البنود والمناصب، كانت «تحفة المجاهدين في العمل بالميادين» الأطروحة الأساسية عن الميادين التي كتبها لاجين بن عبد الله الذهبي الطرابلسي الرماح (توفي ٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م). وبقي منها أكثر من إحدى عشرة نسخة.

تمرينات الحربة: دبلن، مكتبة تشستر بيتي، قائمة رقم: A21.

الفئة الأولى: فنون اللعب بالدبوس

تعد الأطروحة مجهولة المؤلف كتاب «في معرفة لعب الدبوس والصراع على الخيل عند ملاقاة الخصم في الحروب»، هي الأطروحة الوحيدة المتبقية عن الدبوس. وتنقسم إلى جزأين: يحتوي الأول على وصف خمسة وثلاثين تدريبًا، والثاني على أساليب الصراع بالأيدي على ظهر الحصان. وبقي منها على الأقل أربع نسخ. وكانت «الأساس في صناعة الدبوس» لعز الدين بن جماعة هي الأطروحة الوحيدة عن أساليب القتال بالدبوس، التي يمكن نسبها إلى مؤلف محدد، وقد فقدت الآن، ولكن ذكرها حاجي خليفة. ونظرًا لسعة معرفة ابن جماعة، احتوى هذا العمل بالتأكيد على الكثير من المعلومات حول النزال بالدبوس، وليس تعداد خمسة وثلاثين بندًا فقط. ربما يرجع عدم وجود مصادر عن بنود الدبوس من فترة ما قبل المماليك إلى الأسباب نفسها من عدم وجود مصادر عن بنود الحربة.

فارس مملوكي يلوح بدبوس مشتعل: ٣٠×٢٠ سم، باريس، المكتبة الوطنية: MS 2824، B 62.

اللعب بالدبوس على ظهر الفرس: ٣٠×٢٠ سم، باريس، المكتبة الوطنية: MS 2824، A 64.

الفئة الأولى: خطط الجيش وتنظيمه

لم تقدم الأطروحات المملوكية أي مفاهيم جديدة حول خطط الحرب وتنظيم الجيش، ولكنها اعتمدت على المصادر الأقدم دون تمييز، وبغض النظر عن صلتهم المعاصرة. اقتبس ابن منجلي من التكتيك للإمبراطور البيزنطي ليو السادس (٩٦٦-٩١٢م) الذي اعتمد كليًّا تقريبًا على استراتيجيات الإمبراطور موريس (٥٨٢- ٦٠٢م). وقد أعطاه عنوان «مراتب الحروب»، وأوصى به الجنود بشدة. كذلك استخدم الأقصرائي مصادر ساسانية، وذكر بوليبوس اليوناني، واعتمد بشدة على تكتيكات إيليان التي كتبت في اليونان في بداية القرن الثاني.

كانت النسخة المختصرة من عمل حرذامي هي المصدر الأساسي من فترة ما قبل المماليك، بالرغم من أنه قليلًا ما يتم الاعتراف به، وقد اقتبس منه الأقصرائي وابن منجلي، وخاصةً عمر بن إبراهيم الأوسط الأنصاري، الذي استخدم النص كله تقريبًا في كتابه «تفريج الكروب في تدبير الحروب»، الذي كُتب من أجل السلطان الظاهر برقوق (٨٠١-٧٨٤هـ/ ١٣٨٢-١٣٩٩م). مثّلت أطروحة ابن منجلي في العموم - بغض النظر عن الاعتماد القوي على مصادر ما قبل المماليك - إسهامًا حقيقيًّا. وكان يحمل لقب المقدم لأربعين عامًا في الحلقة، وكان نقيبًا في الجيش بالإسكندرية في عهد شعبان، وكتب أغلب أعماله في تلك السنوات عندما كان في الستين أو السبعين من عمره. تعد أطروحته «الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية» التي تحتوي على ١٢٢ بابًا عن الحرب الملاحية فريدة من نوعها في الأدب العربي؛ إذ وصف الخطط البحرية والمعدات البحرية والأسلحة خاصةً البنادق. يتخلل النص نصائح عملية للمقاتل البحري، وتبقى منها على الأقل نسخة واحدة.

كذلك تم حفظ أطروحتين لابن منجلي، هما: «الأدلة الرسمية في التعابي الحربية والتدبيرات السلطانية في سياسات الصناعة

التدريب بالسيف والدرع: دبلن، مكتبة تشستر بيتي، قائمة رقم: A21.

الحربية». بالرغم من أن عنوان الأدلة يعني أن تشكيلات المعركة هي الموضوع الأساسي لذلك العمل الصغير المهم، فلا يتناول هذا الموضوع إلا أقل من ربع النص فقط؛ أما الباقي فيحتوي على تلميحات ونصائح للجنود ومن هم على رتبة مقدم، عن الحرب والأسلحة والمعدات والحرب البحرية والحصار الحربي وما إلى ذلك. وقد نجا منها نسختان، الأولى مُوقعة بتاريخ ٧٧٠هـ/ ١٣٦٨-١٣٦٩م. وبدون الاعتراف به، يقتبس ابن منجلي من أطروحة الحرذمي الصوفي أبي العباس البوني أيضًا، فيما يتعلق بتشكيل معين للمعركة مستوحى من كتاب آخر عن التعويذات والقوى الخفية من أرقام وحروف. أدرج ابن منجلي عدة خطط لتشكيلات المعارك؛ إذ يحدد بها عدد الجنود من خلال القوى الخفية للحروف الموازية.

وقد كان أكثر تفصيلًا في التدبيرات؛ فقد كشف عن اعتقاده القوى الخفية للحروف والأرقام، وأوصى بأن تُحفر الحروف على الأسلحة والدروع. كذلك ذكر بالفعل أنه قد كتب أطروحة كاملة عن الموضوع، وهي الأطروحة الضائعة «أقصى الأمد في الرد على منكر سر العدد». وتشمل التدبيرات نصائح ووصايا عن الترتيبات اللازمة لمختلف المستويات الحكومية والعسكرية المقبلة على الحرب. وكذلك تحتوي على أقسام من الرماية وأساليب استخدام الحربة والخيل. كانت المصادر الأساسية لابن منجلي في هذا العمل مختصر الحرذمي، وإفادة ابن ميمون، وأطروحة (أ) و(ب) لابن أخي حزام. وقال ابن منجلي عن الأخيرة إن ابن أخي حزام كان من أهم مُوصلي أساسيات النزال بالحربة، وسلّط الضوء على إسهامه في فن الفروسية وأدبها. ويوجد الآن خمس نسخ من التدبيرات. كانت أعمال ابن منجلي مصادر مهمة حول معدات الجيش المملوكي، وخاصةً الحلقة في نهاية الفترة البحرية، وتعد أيضًا ضرورية لتقييم الفكر العسكري.

عندما أمر آخر خلفاء الدولة الأموية مروان الثاني (١٣٢-١٢٩هـ/ ٧٤٤-٧٥٠م) ابنه عبد الله بأن يقود الجيش ضد الضحاك الخارجي، كتب عبد الحميد بن يحيى الكاتب؛ كاتب مروان، لعبد الله، خطابًا يحتوي على نصائح عملية وتعليمات لتنظيم الجيش وسلوكيات الحرب. ومن الممكن احتساب هذا الخطاب المهم والأصلي- الذي لم يدرسه علماء العصر الحديث باستفاضة حتى الآن - رائد الأطروحات الإسلامية والعربية عن فن الحرب.

وضعت رسالة عبد الحميد النمط للكتّاب العباسيين. إذ حذا عبد الجبار عدي؛ كاتب الخليفة المنصور وأحد أكثر الكُتّاب العباسيين بلاغة وفقًا لابن النديم، حذو عبد الحميد. كتب ابن عدي أطروحة «أدب الحروب وصورة العسكر» للمنصور، وتناول سلوكيات الحرب وتنظيم الجيش. كان هذا العمل المفقود - الذي كان منطقيًّا على الأقل في أهمية رسالة عبد الحميد نفسها وأصالتها - أول أطروحة عباسية إسلامية عن فن الحرب.

وبعد قرابة سبعين سنة، كتب الخليل بن الهيثم الحرذمي الشعراني أطروحته الهائلة كتاب «الحيل والمقاعد في الحروب» من أجل المأمون. وقد وضعه المسعودي وسط الإسهامات البارزة لعلماء المسلمين. ويضيف وصف ابن النديم ومدحه لذلك العمل الذي ذكره بعنوان كتاب «الحيل» شهادة عظيمة لأهميته وقدره. بدون شك كتب الحرذمي أطروحة مؤسسة، وهو الجندي المخضرم الذي يكتب من أجل خليفة محارب معروف وراقٍ ومحاط بمجموعة هائلة من أعاظم التكتيكيين وقادة الجيش.

ولكن يبدو أن هذا العمل سرعان ما أصبح نادرًا، وربما لا يمكن الوصول إليه بعد القرن الحادي عشر. حتى النسخ المختصرة منه بعنوان «مختصر سياسات الحروب» لم تكن متوافرة، وتبقى منها نسخة واحدة فقط. ربما في عهد المماليك، كانت النسخ الأخيرة غالبًا غير موقعة، وربما غير معنونة أيضًا. وقد يبرر ذلك حذف اسم الحرذمي من أدب الفروسية المملوكي، وخاصةً من أطروحات ابن منجلي الذي عادةً ما اعترف بمصادره.

كان كتاب «الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب» - الذي تم تأليفه تقريبًا في أواخر القرن التاسع/ العاشر الميلادي - مستخدمًا من قِبل المؤلفين المماليك، وخاصةً الذين يؤلفون نصوصًا في المجموعة الثالثة. تتناول تلك الأطروحة العباسية - التي أخذت أول فصولها من الأطروحة (ب) لابن أبي حزام - التنظيمات العسكرية وخدع الحرب بصفة عامة، كما تحتوي على قسم حول استخدام الأجهزة النارية التي تعد الأقدم في أدب الفروسية. ادعى المؤلف المجهول أن الفصل حول خدع الحرب كان مستوحى من نص يوناني قديم كان مختبئًا بين صخور الإسكندرية، ومبنيًّا على حكمة الإسكندر الأكبر. وقد نجا منه نحو ست نسخ.

كانت أطروحات الفروسية العامة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر تتناول موضوع الحيل الحربية والتنظيم العسكري، ولكن كان هناك بعض الأعمال المخصصة لهذا، منها أطروحة «التذكرة الهراوية في الحيل الحربية» لابن تقي الدين أبي الحسن علي بن أبي بكر الهراوي، الذي كتبها في وقت ما بين عام ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م ووفاته عام ٦١١هـ/ ١٢١٥م. وقد تم تفريغ ثلاث من النسخ الخمسة على الأقل المعرفة في عهد المماليك، إحداها من أجل مكتبة السلطان قايتباي الخاصة؛ مما يثبت أن المماليك كانوا على دراية بهذا العمل الصغير المهم.

الفئة الأولى: أطروحات عن الأسلحة ومحركات الحرب

بعيدًا عن وصف القوس والنشاب ومعدات الرماية، لم تنجُ أي أطروحة مملوكية متخصصة في الأسلحة أو الدروع بالرغم من تطور صناعة الأسلحة، التي تمركزت في ترسانات حلب ودمشق والقاهرة. كانت المعلومات عن الأسلحة في الأعمال المملوكية مستقاة من أطروحة الكندي حول السيوف التي كتبها للخليفة المعتصم، ومن الأطروحة (ب) لابن أخي حزام عن السيوف والحربة والدروع. أما المعلومات عن الأسلحة النارية، فعادةً ما تأتي من أطروحات الفروسية، من الفئة الثانية. ولكن هناك عمل مجهول المؤلف بعنوان «عيارات النفط» الموجود منه نسخة واحدة بتاريخ ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م.

وقد تم تناول المعلومات عن الأسلحة النارية بما فيها المدافع في عمل فريد عن محركات الحصار بعنوان «الأنيق في المنجنيق» كتبه أورنبوغا الزراداكش من أجل منغلي بوغا الشمسي (توفي ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م)؛ قائد جيش المماليك في عهد شعبان. يُقدِّم هذا العمل الكامل بصور مفصلة وصفًا شاملًا عن طرق بناء محركات مختلفة؛ من حصار، ومقاذف، ومدافع، وأقواس ثابتة، وأبراج خشبية، وسلالم، ومنصات. ويتناول الفصل الأخير المعدات النارية التي يدفعها القذائف والأقواس. وقد بقي من تلك الأطروحة نسختان.

الفئة الأولى: أطروحات حول الصيد

كانت أطروحة ابن منجلي «أنس الملا في وحش الفلا» التي تم تأليفها في عام ٧٧٣هـ/ ١٣٧١م، هي الأطروحة المملوكية الأساسية عن الصيد. وتكمن أصالة هذا العمل في صفحاته القليلة الأولى؛ حيث يُقدِّم المؤلف معلومات مهمة حول أنواع السروج وأساليب الصيد من على ظهر الحصان بالقوس والرمح والسيف. أما باقي الأطروحة، فهو مستقى كليًّا من مصادر سابقة كلها معترف بها، وخاصةً «الجمهرة» للأسعدي (انظر أدناه)، وهي صورة مختصرة تمثل ثلثي «الأنس». واستخدم ابن أخي حزام قسمًا كاملًا عن صيد الأسود بالنبال من على ظهر الخيل – من الأطروحة (ب) –. ومن المصادر الأخرى أطروحة كوشاجيم «مصايد»، وأطروحة الجاهز كتاب «الحيوان»، وأطروحة ابن وحشية كتاب «الفلاحة النباتية». وقد بقي منها أكثر من نسختين.

وكان فن صيد الطيور (البيزرة) هو موضوع الأطروحات الإسلامية الأولى حول الصيد، التي ظهرت في أوائل العصر العباسي. وكان من أوائل المصادر في ذلك المجال: الغطريف بن قدامة الغساني، الذي يُقال إنه عاش عمرًا طويلًا حتى أصبح كبير مدربي الصقور عند الخليفتين الأمويين هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ/ ٧٢٤-٧٤٣م)، ووليد بن يزيد (١٢٦-١٢٥هـ/ ٧٤٣-٧٤٤م)، كما شغل المنصب نفسه لدى الخليفة العباسي هارون الرشيد. نسبت أطروحة عن البيزرة لم يذكرها ابن النديم إلى الغطريف، وقد ذُكِرت في بعض الأعمال العباسية اللاحقة مثل «قوانين» للزينبي، و«الكافي» للبلدي، و«الجمهرة» للأسعدي. ربما تُرجمت بأمر من فردريك الثاني (١١٩٤-١٢٥٠م) إلى اللاتينية، ومن اللاتينية إلى الفرنسية على يد دانيال كريمونا الذي أهداه بدوره إلى إنزيو؛ ابن فردريك (١٢٧٢-١٢٢٠م).

يجب ألا يختلط أدهم المحرز البهيلي؛ الذي تم اقتباس كلامه في أعمال المسعودي، والزينبي، والبلدي، والأسعدي، بالشاعر وقائد الجيش الذي حارب في صفوف معاوية في صفين. لم تنجُ أي أطروحة تحمل اسمه، بالرغم من أن ابن خيثمة قد ذكر أن الخليفة المهدي قد أمره هو والبهيلي بتأليف أطروحة عن الطيور الرياضية، تشمل معارف البيزنطيين والأتراك والعرب. عُرف أدهم كأحد ملوك خراسان في أطروحة مجهولة عن الصيد في القرن التاسع.

كتب الحجاج بن خيثمة أطروحة بعنوان كتاب «منافع الطير» أو كتاب «الطيور»، تحتوي على ١٥٠ بابًا. ولو كانت قد كتبت من أجل المهدي حقًّا كما يدّعي في مقدمته، لكانت أقدم الأطروحات المعروفة عن الصيد بالصقر، وقد بقي منها على الأقل نسختان.

كان إبراهيم البصري البازيار، الذي عاش في منطقة البصرة في عهد هارون الرشيد وفقًا للأسعدي، مؤلف أول أطروحة عن الصيد بالصقر. ربما قصد الأسعدي أن البصري كان مؤلف أول أطروحة أصلية عن الصيد بالصقر؛ إذ مدح كفاءته في الصيد بالطيور الرياضية (مثل الباز والصقر والشاهين) والكلاب والنمور وغيرها من الحيوانات المفترسة المدربة، وكذلك قدرته على استخدام جميع أنواع الفخوخ والكمائن. كذلك نسب إليه فوق كل شيء تقديم وترويج أساليب التدبيق لصيد الطيور.

كتب أغلب أطروحات الصيد في القرن التاسع الأعيان وكبار الشخصيات العباسية، مثل أبي دلف القاسم بن عيسى العجلي (توفي ٢٢٥هـ/ ٨٣٩م) الذي ألف كتاب «الجوارح واللعب بها» وكتاب «البوظات والصيد»، والفتح بن خاقان (توفي ٢٤٧هـ/ ٨٦١م) وقد ألف كتاب «الصيد والجارح»، وأحمد بن أبي طاهر طيفور (توفي ٢٨٠هـ/ ٨٩٣م) إذ ألف كتاب «الطرد»، وأحمد ابن الطيب السرخسي (توفي ٢٨٦هـ/ ٨٩٩م) الذي ألف كتاب «الجوارح والصيد بها»، وعبد الله بن المعتز بن (الخليفة) المتوكل (توفي ٢٩٦هـ/ ٩٠٨م) مؤلف كتاب «الجوارح والصيد»، ومحمد ابن عبد الله بن عمر البازيار (مدرب صقور الخليفة المتوكل

٢٣٢-٢٤٧هـ/ ٨٤٧-٨٦١م، ورفيقه الأمين) الذي ألف كتاب «الجوارح». بالرغم من عدم نجاة أي من تلك الأطروحات، فقد ذُكر بعضها في الأعمال اللاحقة.

شهد القرن العاشر ظهور أطروحتين مهمتين عن الصيد؛ هما: كتاب «المصايد والمطارد» لأبي الفتح بن الحسن كشاجيم؛ الذي نشط نحو عام ٣٥٧هـ/ ٩٦٨م، وكتاب «البيزرة» لمدرب صقور الخليفة الفاطمي العزيز بالله (٣٦٥- ٣٨٦هـ/ ٩٧٥-٩٩٦م).

يعد كتاب «المصايد» لكشاجيم أقدم النصوص الموجودة التي تحاول أن تُقدِّم معالجة شاملة عن التناسل والصيد بالصقور. وهي سيرة قيمة للممارسات والمعارف المعاصرة في القرنين الثامن والتاسع الهجريين. زخرف كشاجيم – وهو شاعر وأديب – في أطروحته قصائد وقصصًا ذات صلة؛ مما أعطى عمله بعدًا اجتماعيًّا. تعد «المصايد» المصدر الأقدم عن صيد الطيور بالكريات، وأيضًا أقدم الأعمال الموقعة الناجية التي تعتمد على الأطروحة لابن أخي حزام.

ولعل كتاب «البيزرة» الفاطمي هو أول عمل معروف يتناول البيزرة ويضعها في العنوان. تناول مؤلف هذه الأطروحة الفاطمية التناسل والصقارة، ومن ثم توسع في نطاق البيزرة ليشمل الصيد بصفة عامة. يعد كتاب «البيزرة» أول أطروحة مصرية، وهي أيضًا الأطروحة الوحيدة التي نعرفها كُتبت في العهد الفاطمي من أجل العزيز بالله، الذي كان من بداية عهده متحمسًا وملتزمًا بالفروسية العباسية النبيلة التي أقامها في مصر الإخشيديون ومن قبلهم الطولونيون. لم يكن العزيز بالله شغوفًا بالصيد فقط، لكنه كان أيضًا أول حاكم فاطمي يمارس الرماية والبولو، ويتعامل مع الحربة على الطريقة العباسية الشرقية. وكان فريدًا في التاريخ الفاطمي؛ إذ لا يوجد دليل على أن أحدًا من خلفائه قد حذا حذوه. ولم يُسمح للفروسية النبيلة بأن تترسخ كعادة ملكية في الدولة الفاطمية. كان هذا جزئيًّا بسبب التأثير الثقافي والمادي القوي للبربر، الذين استعادوا هيمنتهم بعد وفاة العزيز. ويُفسر هذا أيضًا لماذا لا يوجد أي أطروحة فاطمية باستثناء كتاب «البيزرة».

إن صفحة الفهرسة (بيانات النشر) للنسخة الوحيدة المتوافرة من كتاب «البيزرة» مفقودة، ولذلك يذكر دائمًا على أنه عمل مجهول المؤلف. ولكن بفضل مرجع عند الزينبي تمكنا من تحديد المؤلف وهو أبو عبد الله الحسن بن حسين البازيار؛ مدرب صقور وزير الخليفة الفاطمي العزيز بالله لمدة خمسة عشر شهرًا. كانت الأطروحة على غرار «المصايد» لكشاجيم، التي اعتمد عليها بشكل هائل بدون الاعتراف بمصادره، حتى إنه قد انتحل بعض قصائد كشاجيم. يكمن إسهام كتاب «البيزرة» في احتوائه فصلًا صغيرًا عن الصقارة؛ حيث يعطي المؤلف بعض الملاحظات

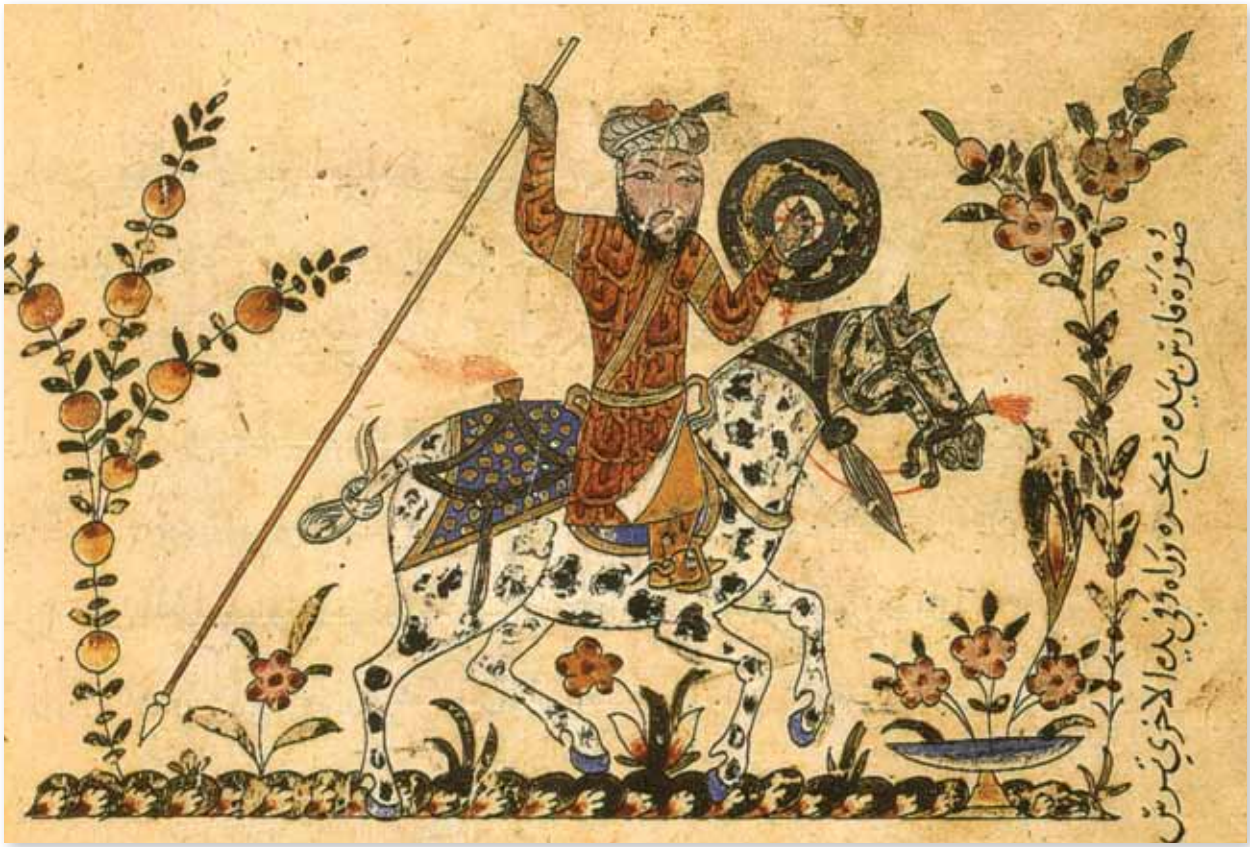

رمي القبق: ٢٠×٣٠سم، باريس، المكتبة الوطنية: MS 2824، A 28.

الصيد بالحربة: لندن، المكتبة البريطانية، قائمة رقم: MS 18866.

الأصيلة والشخصية. وكانت هذه الأطروحة نادرة وغير معروفة تمامًا للمماليك.

بعد سنوات طويلة من الجفاف، بُعِث أدب الفروسية العباسي من جديد في المائة سنة الأخيرة للخلافة عندما كُتِبت أهم أطروحات الصيد: «القوانين» للزينبي، و«الجمهرة» للأسعدي، و«الكافي» للبلدي، وكان العملان الأولان هما الأهمان. كانت أطروحة عبد الرحمن البلدي «الكافي في البيزرة» – التي كُتبت بعد «القوانين» وقبل «الجمهرة» – مخصصة للصقارة، وواحدًا من أفضل النصوص حول ذلك الموضوع قبل عمل الأسعدي العظيم. ولكن بعد العمل على تحريره وتحقيقه، يظل «الكافي» أهم مصدر صدر عن الصقارة.

كتب أبو النصر القاسم بن علي الزينبي أطروحة «القوانين السلطانية في الصيد»، وهو أحد أعضاء عائلة الزينبي العباسية النبيلة التي اشتهرت في الأوساط الاجتماعية والثقافية والسياسية بالعراق في النصف الثاني من القرن الحادي عشر وبداية الثاني عشر الميلاديين. كان المؤلف – مثلما كان والده من قبله – قاضي قضاة بغداد إذ توفي في عام ٥٦٣هـ/ ١١٦٧م. تشير بيانات السيرة الذاتية إلى أنه بدأ كتابة الأطروحة للخليفة المقتفي (٥٣٠-٥٥٥هـ/ ١١٣٦-١١٦٠م) قبل وفاته بوقت قليل، وأنهاها في بداية خلافة المستنجد (٥٥٥-٥٦٦هـ/ ١١٦٠-١١٧٠م) الذي أهديت إليه الأطروحة في النهاية. لم تكن صدفة أن الأطروحة بدأت تحت رعاية المقتفي؛ حيث خسر الخلفاء العباسيون حقهم في الصيد الملكي في أثناء عهد البويهيين والسلاجقة في العراق، واختفت هذه العادة التي كانت علامة على الملكية ورمزًا للقوة لمدة مائة وخمسين عامًا. عزز موت السلطان السلجوقي مسعود في عام ٥٤٥هـ/ ١١٥٠م موقف المقتفي الذي يعد أول خليفة عباسي حصل على استقلال العراق منذ قيام الدولة البويهية؛ إذ سجل التاريخ العباسي أن الخليفة قد خرج للصيد في يوم ما خلال آخر خمس سنوات من حكمه.

كان الغرض من «القوانين» أن يكون دليلًا ملكيًّا أو خلفيًّا للصيد؛ مما يبرر النطاق غير التقليدي والتفاصيل الدقيقة بهذا العمل الذي يحتوي – بالإضافة إلى التناسل، وفصل طويل، وقيم عن الصقارة – أقسامًا عن أنواع الخيل، ومعداتها، والأسلحة، والرماية، والبولو، وفتوة الصيد بالكريات، والأحوال المناخية (بالعراق)، والجداول، والآلات الفلكية، والطرق المتعددة لإيجاد القبلة... إلخ. وتحتوي الأطروحة أيضًا رسائل أصلية عن الصيد، وعددًا من قصائد الطرديات، وكذلك معلومات جديدة حول الخلفاء العباسيين والصيد الملكي في القرون الأولى للخلافة. ومن ثم، فهي مرجع ضروري عن الفروسية النبيلة في العصر العباسي، ولكنها لم تلاحظ من قِبل البحث الحديث. والنسخة الوحيدة الموجودة حاليًّا في إسطنبول.

ألف أبو الروح عيسى بن علي حين الأسعدي البغدادي «الجمهرة في علوم البيزرة» نحو عام ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م، ولم تكن الأطروحة مقتصرة على الصقارة، بل عن الصيد بشكل عام. ومن ثم يستخدم لفظ بيزرة. كان الأسعدي صائدًا مخضرمًا كما تميز بالمعرفة النظرية الواسعة. كان قادرًا على تجميع جميع المواد عن الصيد والمصايد في الشرق في جزأين محددين. كان الفهرس وحده قادرًا على جعلها أطروحة أكبر حجمًا من أطروحة الأحدب «البنود». وبينما اختص الجزء الأول بالأسلوب، اهتم الجزء الثاني بمعالجة جميع أنواع الحيوانات المفترسة وغيرها المدربة والاهتمام بها. يعلو قدر هذا العمل – الذي يحق وصفه بالعظمة غير المسبوقة – فوق جميع الأعمال الأدبية التي كُتبت حول هذا الموضوع في الشرق، ويُمثِل أهم الإسهامات في هذا المجال في الإسلام. ويوجد منها ثلاث مجموعات كاملة.

الفئة الأولى: أطروحات عن البولو

وصلت لعبة البولو أوجها في العصر المملوكي كعادة ملكية ولعبة شعبية. ولكن لا يمكن ذكر أطروحة مملوكية أصلية واحدة عن هذا الموضوع. ويبدو أن الوثيقة الوحيدة التي تم تداولها في تلك الفترة كانت فصلًا من الأطروحة (ب) لابن أخي حزام، الذي يظل المصدر الناجي الوحيد حول هذا الموضوع، إلا إذا وُجدت نسخ من أطروحة الجاهز كتاب «السوالجة» أو كتاب «عين الدرب بالسوالجة» التي ذكرها ابن النديم. وقد أُعيد إنتاج هذا الفصل في عدد من الأطروحات اللاحقة، مثل «غايات الإتقان في أعمال النشاب والصولجان» للطاميش، وفي كتاب «علم الدرب في السوالجة وما يتعلق بذلك من آلات الفرسان والرياحين» وهو مجهول المؤلف.

الفئة الثانية: أطروحات الفروسية العامة

تعد النصوص الأساسية من الأطروحات في هذه الفئة شعبية (من المجموعة الثالثة)، وأطروحات أساسية (المجموعة الأولى)، وأطروحات مُجمعة جيدة (المجموعة الثانية) وهي قليلة للغاية. ومن الجدير بالذكر أن من المجموعة الأولى: أقدم أطروحة فروسية مملوكية ناجية كتبها بدر الدين بكتوت الرماح الخازنداري الزهيري، وقد شرع في كتابتها عام ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م، عندما كان السلطان أشرف خليل (٦٨٩-٦٩٣هـ/ ١٢٩٠-١٢٩٤م) محاصرًا عكا؛ حيث شارك معه بكتوت كجندي عادي في الحلقة. تعد تلك الأطروحة بسيطة، ولكن صادقة، ذات هدف قوي. لم يكن لدى المؤلف أي ذرائع ليكون بفصاحة زملائه من أواخر القرن الرابع عشر مثل ابن منجلي وبلاغتهم. ولم يكن

بَابُ ٱلْمُقَامَطَةِ عَلَى ٱلْفَرَسِ بِٱلْأَيْدِي

إِذَا قَابَلَكَ وَمَدَّ يَدَهُ إِلَى صَدْرِكَ لِيَجْذِبَكَ مِنْ عَلَى ٱلْفَرَسِ فَامْسِكْ مِلْكَمَهُ بِيَدِكَ ٱلشِّمَالِ وَٱجْعَلْ زِنْدَكَ عَلَى قُصَادِهِ وَلَا تَعْبُرْ بِمِرْفَقِكَ إِلَى خَارِجِ زِنْدِهِ فَإِنَّهُ يَرْكَبُ وَرَاكَ وَٱمْسِكْ عَلَى يَدِهِ وَٱقْصَعْ فَإِنَّهُ مُنْكَى

وَهِيَ مِنْ قُدَّامِهِ وَمِنْ وَرَائِهِ وَمِنْ رِكَابِهِ

المقامطة على الفرس بالأيدي: ٣٠×٢٠ سم، باريس، المكتبة الوطنية: MS 2824، A 77.

لديه الاهتمامات والدوافع نفسها؛ لأنه كان يكتب، ويتناول حقبة زمنية أخرى عرفت بالأنشطة العسكرية المكثفة. في ذلك الوقت كانت الحلقة ورجالها تتمتع بالاحترام، وكانت الفروسية في أوجها. وكان ذلك أيضًا عصر الأحدب وحمى الحربة. وكان بكتوت بارعًا في استخدام الحربة. وباستخدام الـ ١٥٠ بندًا من أساتذة الماضي ومن الـ٧٢ بندًا للأحدب، ومن الـ٢٤ لآدم، كون سبعة تمارين مهمة من أجل تسهيله على المبتدئين. شكل عمله على نهج الأطروحتين (أ) و(ب) لابن أخي حزام مقلدًا حتى الديباجة. تتناول الأطروحة بشكل أساسي أساليب الحربة والاهتمام بالخيل، ولكنها تحتوي أيضًا مقالات شائقة عن موضوعات أخرى، مثل تدريب المبتدئين على الرماية وتناوب الأسلحة المختلفة في أرض المعركة. لم يعطِ بكتوت اسمًا لأطروحته، وقد عُرفت بأسماء مختلفة على مر العصور. ومن المعروف وجود سبع نسخ منها.

تعد أطروحة «نهاية السؤال والأمنية في تعلم أعمال الفروسية» لمحمد بن عيسى بن إسماعيل الأقصرائي الحنفي (٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م) أهم أطروحة عامة في أدب الفروسية المملوكي، وهو افتراض مشكوك فيه؛ إذ إنه لا يوجد حتى الآن تحليل كامل لهذا العمل. لم تكن الأطروحة تجميعًا فقط؛ وإنما تأليف أصلي لعالم، مزج بين البلاغة والمعرفة العملية في بعض فروع الفروسية، وخاصةً فن الحربة والرماية. وهي محاولة مقصودة لوضع المعرفة والخبرة في إطار عمل مشترك، كما أنه مجهود منسق لوقف تدهور الفروسية في ذلك الوقت. كانت النتيجة موسوعة فريدة من نوعها تحتوي بيانات تاريخية من خلفيات ثقافية متنوعة. لم تدل الكثير من البيانات على الممارسات المعاصرة. فأُخذت بعض المعلومات عن التكتيكات والتنظيم العسكري وتشكيلات المعركة من مصادر يونانية وساسانية لم تكن قط ضمن الممارسات العسكرية العباسية أو المملوكية؛ أو على الأقل ليس بتلك الطريقة التي قُدمت بها. لم تكمن أهمية «النهاية» في تمثيلها للحقيقة العسكرية المملوكية؛ وإنما في كونها المصدر الرئيسي لعدد من الموضوعات، بما فيها اقتباسات طويلة من أطروحات لم تعد موجودة. يقدم التقسيم المبدئي للمحتويات – وأحيانًا تحديد المصادر – تقييمًا أكثر دقة للأطروحة.

الدرس الأول «٢٧(ب) و٤٢(ب)»: يعتمد هذا الفصل عن الرماية على عدد لا بأس به من المصادر من قبل عصر المماليك. وقد تم ذكر «إيضاح الإخباري» بعنوان «الإيضاح» دون نسبته إلى الكاتب، وكذلك «النهاية» ليونيني، و«الواضح» للطبري، و«الإفادة» لابن ميمون. كذلك اقتبس من أرداشير (ابن بابك) وذكر أطروحته بعنوان «النهاية».

الدرس الثاني «١١٨–٤٢»: يعد هذا الفصل عن استخدام الحربة الأطول، وربما يُمثِّل التطور الأشمل لأساليب الحربة في أدب الفروسية. ينقسم إلى مجموعة من الأبواب، الخمسة الأولى منها مخصصة للنسخ المختلفة من بنود الأحدب، في حين خصصت أبواب لاحقة لأفكاره عن الميادين والمناصب. وفي هذا الموضوع من الممكن اعتبار الأقصرائي أكثر المصادر ثقة؛ فالمصدر الآخر الوحيد الذي يمكن ذكره هنا هو الأطروحة (ب) لابن أخي حزام (غير المعترف بها). كانت فصوله عن ركوب الخيل وأساليب استخدام الحربة – التي اقتبست حرفيًّا – تملأ ٢٠ بابًا. وفي باقي الفصل – وهو ليس بجزء هين – اعتمد المؤلف على مصادر غير محددة.

الدرس الثالث «١١٨(أ) و١٤٨(ب)»: تعد أغلب المعلومات عن فن استخدام السيف فريدة في أدب الفروسية المملوكي. يشمل هذا الفصل ثلاث صفحات من الأطروحة (ب) لابن أخي حزام (غير معترف بها)، وأطروحة الكندي عن السيوف (معترف بها). ولم يتم تحديد أي مصادر أخرى.

الدرس الرابع «١٥١(ب) و١٥٢(ب)»: هذا الفصل عن الدروع مأخوذ كليًّا من الأطروحة (ب) لابن أخي حزام (غير معترف بها).

الدرس الخامس «١٥٢(ب) و١٥٣(أ)»: تم تجميع هذا الفصل القصير عن الدبوس من عدد غير محدد من المصادر. من الواضح أنه لم يتوافر أطروحة كاملة، أو عن الدبوس حتى فصل للأقسراعي.

الدرس السادس «١٥٣(أ) و١٦١(ب)»: كانت الأطروحة (ب) لابن أخي حزام (غير معترف بها) مصدر الأقصرائي الأساسي لتدريب الفرسان؛ إذ تغطي معدات الخيل، والوثب بالخيل، والصيد بالقوس. هناك تركيز خاص في الطريقة الشهيرة لصيد الأسود بالقوس من على ظهر الحصان.

الدرس السابع «١٦١(ب) و١٩٧(ب)»: وصف طرق استخدام الأسلحة في مختلف المواقف. تتضح وحدة الأسلوب والموضوع، حتى إن الأقصرائي كان يقتبس حرفيًّا مما هو الآن مصدر غير محدد. كان عمله إذًا هو الوحيد المتوافر عن هذا الجانب من الفروسية.

الدرس الثامن «١٩٧(ب) و٢١١(ب)»: يتناول المؤلف في هذا الفصل التجنيد وتنظيم الجيش، ويضم بيانات غير متناسقة تمامًا مع الفترة المملوكية. فعلى سبيل المثال، هناك قسم عن استدعاء القوات وتجنيدها يعتمد على ديوان الجيش الذي طوره العباسيون؛ إذ كان يعد من الضروري الاحتفاظ بوصف دقيق لكل جندي وأهميته في تلك السجلات، لذلك كان هناك

خاتمة كتاب «السؤال والأمنية في تعلم أعمال الفروسية»: ٢٩,٥×١٩ سم، دبلن مكتبة تشستر بيتي، قائمة رقم: A21 ms.

كتاب السؤال والأمنية في تعلم أعمال الفروسية

بسم الله الرحمن الرحيم

أبو سعيد أحقبو نصره الله بمحمد وآله

للشيخ محمد بن عيسى بن إسماعيل الحسني رحمه الله تعالى

تركيز في علم الفراسة؛ مما دفع علماء مثل الكندي والجاهز إلى الكتابة في هذا الموضوع. كانت أهم الإسهامات في هذا المجال «رسالة في علم الفراسة» لفخر الدين الرازي (٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م)، وكتاب «الفراسة» لمحمد بن إبراهيم الأنصاري الصوفي الدمشقي (توفي ٧٢٧هـ/ ١٣٢٧م). اعتمد الأقصرائي على الأولى (غير معترف بها) و«الخراج وصناعة الكتابة» (غير معترف بها) لقدامة ابن جعفر البغدادي (توفي ٣٢٩هـ/ ٩٤٠م). كان القسم عن الكمائن مأخوذًا من أطروحة الحرذمي المختصرة (غير معترف بها)، كما احتوى مواد من «التكتيكات» لإيليان. وربما كان باقي النص من المصدر الساساني نفسه الذي استخدمه الأقصرائي في الدرس التاسع (غير معترف به).

الدرس التاسع «٢١١(ب) و٢٣٥(ب)»: يعد هذا الفصل عن تشكيلات المعارك غير ذي صلة بالسياق المملوكي؛ إذ كان مبنيًّا أساسًا على التكتيكات لإيليان (معترف به)، والمصدر الساساني (غير معترف به) الذي كان بالتأكيد متوافرًا بالعربية في النصف الثاني من القرن الثامن. كذلك فبعض تشكيلات المعركة – وخاصةً تلك التي اتخذت شكل الهلال – كانت معروفة للحرذمي.

الدرس العاشر «٢٣٥(ب) و٢٤٠(ب)»: يتناول هذا الفصل الخدع الحربية التي تتعلق بالآلات النارية والدخان. وينقسم إلى جزأين: الأول عن استخدام النار، وهو منسوخ من الأطروحة العباسية كتاب «الحيل في الحروب» (انظر أدناه) (غير معترف به)؛ أما الجزء الثاني، فكان عن استخدام الدخان في المعركة، ولمَّا يتم تحديد مصدر المعلومات بذلك الجزء بعد.

الدرس الحادي عشر «٢٤٠(ب) و٢٨١(أ)»: يتناول هذا الفصل الطويل غنائم الحرب وعدة قضايا في القانون الإسلامي فيما يتعلق بالسلوك تجاه العدو في الحرب والسلام. وذكر أنه اعتمد على كتاب «السير الصغير»، وكتاب «السير الكبير» للفقيه العراقي محمد بن حسن الشيباني (توفي ١٨٩هـ/ ٨٠٥م).

الدرس الثاني عشر «٢٨١(ب) و٢٩٢(أ)، نهاية الأطروحة»: يغطي هذا الفصل فروع المعرفة التكميلية التي يحتاج إليها المحارب، مثل: إرسال النذائر ومداواة الجروح وما إلى ذلك. كانت مصادر المؤلف غير معروفة، ولكن كونه وضع مثل هذا الفصل في أطروحته يشير إلى اهتمامه بالدقة.

وبعد دراسة متأنية للأطروحة، يتضح أن أهمية «النهاية» تكمن في الدرسين الثالث والسابع وأجزاء من الأول والثاني؛ ومن ثم يبدو أنه من المبالغات اعتبارها «أهم مصدر بالعربية عن التنظيم والتدريب والنظريات العسكرية في الإسلام»، كما اقترح بعض العلماء. وهناك على الأقل عشر نسخ باقية من «النهاية».

كانت أعمال بكتوت والأقصرائي أطروحات الفروسية العامة الوحيدة الموقعة في المجموعة الأولى التي يمكن تتبعها حتى الآن. كل الأطروحات الأخرى في تلك المجموعة لم تكن موقعة سواء عن قصد أو بالخطأ. على سبيل المثال، كُتب العمل غير المعنون وغير الموقَّع، الذي فقد الصفحات الأولى والأخيرة منه في النصف الثاني من القرن الرابع عشر على يد أستاذ مخضرم في الفروسية في الثكنات الملكية في عهد السلطان شعبان أو برقوق. ويمكن اعتباره أحد أكثر نصوص الفروسية المملوكية أصالة. وتكمن أهميته بشكل رئيسي في تعليمات ونصائح المؤلف لرفاقه مدربي الفروسية؛ إذ يحثهم على أن يكونوا أكثر إبداعًا، وأن يبتكروا تمارين جديدة لطلابهم وخاصةً في اللعب بالدبابيس. فقد أعد معلومات حول كيفية معاملة المماليك الشخصيين للسلطان وتدريبهم. وهناك معلومات مهمة عن أساتذة الفروسية في الماضي والحاضر سواء أتراك أو عرب. وكذلك شرح المؤلف المزيد حول ركوب الخيل وأساليب استخدام الدبوس. وقد نجت نسخة واحدة فقط.

ومن النصوص مجهولة المؤلف الأخرى «العديم المثل الرافع القادر»، هو الوحيد الذي يعطي برنامج التدريب الكامل للمماليك؛ إذ يغطي جميع جوانب الفروسية العلوية والسفلية، بما في ذلك أساليب القتال على الأقدام والتقاتل بالخنجر والملاكمة (وهو مصدر فريد حول الموضوع) والمصارعة. وهي أطروحة قيمة للغاية؛ لأنها تعرض أغلب التمارين بالتفصيل. وبقي منها نسخة واحدة فقط.

هناك أطروحتان جديرتان بالذكر من بين النصوص المجمعة (المجموعة الثانية) في أدب الفروسية العامة: كتاب «الفروسية» لابن قيم الجوزية التي تُستخدم إلى حد ما في شرح بعض الأسماء والمصطلحات وتصحيحها؛ و«نقاوة المنتقى في نفيعات اللقاء» للإخميمي، التي كُتبت قبل تعيينه قاضي القضاة في عهد السلطان الغوري؛ وهي اختصار لعمل ابن الكرماني الذي جمعه بدوره من الأعمال المبكرة مثل الأطروحة (ب) لابن أخي حزام. وهو مفيد في شرح الإخميمي لبعض الأساليب التي استخدمها ابن أخي حزام في الفصل حول الحربة. النسخة الوحيدة الباقية غير مُوقعة بتاريخ ٨٨٩هـ/ ١٤٨٤م.

كذلك يتضح أن الأطروحة (ب) لابن أخي حزام لم تكن فقط المصدر الأساسي لأطروحات المماليك العامة، بل أيضًا جزء لا يتجزأ من هذه الأطروحات. ويبدو احترام المماليك لذلك العمل واضحًا من ترجمته للقفجاق بعنوان «منية الغزاة». وبقي منها نسخة واحدة.

بالرغم من أهمية معرفة الأطروحة (ب) لابن أخي حزام لفهم أدب الفروسية الإسلامي، يعرفها الباحثون المحدثون كعمل من القرن التاسع؛ وذلك بشكل أساسي؛ لأن أغلب نسخ الأطروحة (ب) كانت إما غير مُوقعة وإما تحمل أسماء مستعارة، في حين إن أغلب نسخ الأطروحة (أ) حملت توقيعه. بالإضافة إلى أن الأطروحة (ب) تأتي تحت عناوين مختلفة. ومن الجدير بالذكر أن مقدمة الأطروحة (ب) تبدأ بالكلمات: «الحمد لله ذي العظمة المتعالي بالقدرة عن الصفات، ذي المجد والعزة والسلطان. أحمده حمدًا يزيد عن حمد الحامدين وصلاة الله على نبينا محمد خاتم الأنبياء»، مما يسّر تحديد النص. ولكن يُذكر أن مؤلفي المماليك من المجموعة الثالثة كانوا في بعض الأحيان يستخدمون تلك المقدمة، ومعها القسم الخاص بالفروسية الحربية الذي يليها؛ ليعطوا نصوصهم شيئًا من الأصالة.

وقد اعتمدت أن أطروحات الفروسية المملوكية العامة بشدة على تلك الأعمال. وربما من ضمن تلك الأطروحات كتاب «الفروسية» للإشميتي الذي ذكره ابن النديم، وكتاب «الفروسية» للعالم البغدادي الشهير ابن الجوزي (٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م)، والعمل العظيم لأبي يوسف نجم الدين يعقوب بن صابر بن بركات المنجنيقي (توفي ٦٢٠هـ/ ١٢٢٠م) «عمدة السالك في سياسة الممالك». يُشير وصف ابن خلكان للمؤلف والمحتوى إلى أن هذه الأطروحة الأخيرة هي على الأرجح واحدة من أعظم الإسهامات لأدب الفروسية الإسلامي.

بدأ ابن صابر المنجنيقي حياته العملية كجندي، ومن ثم كان ضليعًا في محركات الحصار حتى إنه أصبح أكبر وأهم المنجنيقيين في بغداد حيث ولد ومات. ووفقًا لابن خلكان، كان ابن صابر أيضًا شاعرًا موهوبًا، وهب نفسه لدراسة الفنون العسكرية وممارستها حتى اشتهر بكونه مصدرًا لا يضاهى في هذا المجال. كان المقصود من هذا العمل كما يشير عنوانه أن يكون مرجعًا مهمًّا للدولة العباسية عن الفروسية؛ حيث تناول سلوكيات الحرب، وتشكيلات المعركة، وخدع الحرب، والهندسة العسكرية، والتحصين، وبناء المعاقل، والحصار الحربي، والتدريبات والتمرينات العسكرية، التي تسمى الرياضة الميدانية (تشمل جميع فروع الفروسية العلوية والسفلية) وفنون استخدام الأسلحة المتعددة، وصناعة الأسلحة، وركوب الخيل، وأنواع ووصف الخيل. توفي المنجنيقي قبل الانتهاء من عمله الموسوعي العظيم الذي يذكرنا بشدة بـ«نهاية السؤال»، ولكن حقيقة أن المصادر المعاصرة كانت على دراية بعنوانه – وبالطبع بمحتواه – تشير بقوة إلى أن النسخ ظلت متوافرة في القرن الثالث عشر.

ومن الجدير بالذكر «أطروحة تبصيرات أرباب الألباب»، التي كتبها مرضي بن علي الطرطوسي لصلاح الدين الأيوبي (٥٨٩هـ/ ١١٩٣م)، ويمكن تصنيفها بين أطروحات الفروسية العامة، تعد مصدرًا قيمًا عن الأسلحة الإسلامية وخاصةً محركات الحصار في القرن الثاني عشر. كذلك يعد الفصل عن الرماية بين أفضل النصوص في مختلف مدارس الأساليب الخاصة بالأساتذة العباسيين. كُتبت إحدى النسخ الموجودة على الأرجح من أجل المكتبة الخاصة بصلاح الدين، ومن ثم يمكن اعتبارها أقدم أطروحة فروسية من نوعها ناجية من القرن الثاني عشر، تمثل حلقة مهمة من فهمنا لأدب الفروسية بشكل عام.

صرح كاهن عندما نشر أجزاء من نص الطرطوسي عام ١٩٤٨م «إن تقريبًا كل الأدبيات العسكرية التي وردتنا من الإسلام»، وفهمها العديدون، لتعني أن أدب الفروسية قد بدأ بأطروحة الطرطوسي. تماشى هذا الافتراض الخاطئ مع حقيقة أن العمل قد كُتب في عهد الصليبيين؛ مما أدى إلى المزيد من الاستنتاجات الخاطئة؛ ومنها أن أدب الفروسية قد بدأ بسبب التحديات الكاسحة التي سببتها الحروب الصليبية. ينفي تحليل مصادر الأطروحات المملوكية وأصول الفروسية المذكورة في هذا البحث ذلك الافتراض. ولسوء الحظ، بقي الكثير من الافتراضات الخاطئة التي نتجت بشكل مباشر من تدهور الأبحاث في هذا المجال، وبالرغم من أننا لم نتناولها بشكل منفرد، نأمل أن نكون قد أوضحناها.

ويحمل القفص والجمالة والفيس والدبالة انها لضعت على بالة فتضاعت تقش مدرجها

وتشد مدرجها كلما دانيتي قرنت بالرقعة درهما وقطعة وقلت لها ان رغبت في المشوف المعلم

واشرت الى الدرهم فوجي بالسر المدهم وان ابيت ان تشرحي فخذي القطعة وابيرحي

قالت الي استملاض البدر التم والأبلج الهمر وقالت دع جدالك وبيل عما بدالك فاسطعا

طلع الشيخ وبلدته والشعر وناتج بردته فقالت ان الشيخ من أهل بزوج وهو الذي وشى